المسرح الفلسطيني وصناعة التغيير

د. عبدالفتاح ابوسرور،
رئيس رابطة المسرحيين الفلسطينيين
مدير عام مركز الرواد للثقافة والمسرح
زميل اشوكا

تتطلع كل شعوب العالم الى العيش بأمان وحرية، وان تنشر وجها مشرقا لثقافتها وحضارتها وتراثها، حتى تحظى باهتمام واحترام الشعوب الأخرى. إلا ان الوضع السياسي المفروض على الشرق الأوسط، وبالأخص فلسطين التي تعاني من الأحتلال الأسرائيلي منذ عام 1948، والدعاية المستمرة والمروج لها في وسائل الاعلام صورت الشعب الفلسطيني المضطهد والمعتدى عليه والذي سلب وطنه واحتلت ارضه، صورته على انه هو المعتدي والمجرم والبربري والارهابي.

ربما كان قدرنا ان نكون دائما شعبا يتأرجح بين احتلال او انتداب او وصاية او احتلال مرة اخرى... وربما كان ذلك السبب الرئيس في اجتماع معظم فنوننا التعبيرية ايضا حول مقاومة هذه الاحتلالات على مر العصور، وانتهاء بالاحتلال الاسرائيلي الذي ما زال جاثما كالموت الثقيل على صدر مقاومتنا الشرعية والجميلة.
ولأننا نعيش نكبة مستمرة، كلا واجزاء، منذ واحد وستون عاما، ولأن الذئاب تحوم حول ذاكرتنا وحقوقنا المصونة دوليا والمفرط بها من دولة الاحتلال وبعض اقزام التاريخ من ابناء جلدتنا وغيرهم، كان لا بد لنا من استمرار انعاش ذاكرة الأجيال الفلسطينية وصناعة التغيير في زمن الركود، ودق جدران الخزانات في زمن الصمت، وشحذ الهمم في زمن قبول الواقع المفروض وسياسات سلطات المحتل.
وتعددت طرق انعاش هذه الذاكرة، فهناك ملابس وحلي وادوات، حملها المهجرون الذين اجبروا على اللجوء، او مفاتيح ابواب بيوتهم التي اغلقوها او لم يغلقوها، والتي لا يخلو منها أي بيت. وهناك التاريخ الشفوي، او الكتب التاريخية، او قصص اللاجئين والنازحين والمهجرين في الوطن والمنفى، او قصائد وروايات تسطر ملاحم شعب في مقاومة مستمرة، او لوحات فنية تجسد مأساة تتكرر في واقعيتها كل يوم، او أفلام ومسلسلات ولقاءات وندوات تلفزيونية واذاعية تحيي ذاكرة جيل عاش التهجير الأول والثاني وسياسة "التطفيش" المستمرة التي تتبعها حكومة دولة الاحتلال. او اعمال مسرحية تجسد على خشبة المسرح تاريخا كاملا نزح معنا من ماضينا ليسكن حاضرنا ومستقبلنا.
ما الذي يجعلنا نقاوم؟ ما الذي يميزنا كشعب، ويجعلنا رغم المأساة نجد بارقة امل، ورغم الحزن نجد لمسة جمال، ورغم القهر الشديد، تحركنا اوتار العود وعزف الناي؟ ما الذي يميزنا كشعب يعيش تحت وطأة الاحتلال، فنضحك لنكتة، ونرفض ان نعيش مسوخا حزينة تستجدي الشفقة وتتسول الحق؟
ما الذي يجعلنا نجد في المسرح ملاذا للتعبير والتغيير والمقاومة، وطريقا لحياة متجددة رغم شح الموارد وصعوبة العيش؟ ما الذي يجعلنا كمسرحيين نتحمل هذا العبء الأزلي كصناع للتغيير في زمن التردي السياسي والاقتصادي وحتى الأخلاقي، ونواجه التحديات واشباح الحاضرِ والماضي؟
اننا نُصر على هذه المقاومة، ونرفض التزحزح عن حقوقنا كبشر كي نحافظ على انسانيتنا، وعلى انتمائنا البشري ونرفض الأقفاص التي تحاول دولة الاحتلال ان تسجننا فيها اعلاميا وميدانيا وتزرع في اذهان العالم بأننا لسنا سوى شعب همجي متوحش لا يمت للأنسانية بصلة حتى باتت كلمة فلسطيني في بعض الدول او المجتمعات مرادفة لأرهابي. ولأننا بشر ونحترم انسانيتنا، ولنا حقوق مسلوبة، فإننا نرفض ان نتخلى عن هذه الحقوق.

جاء المسرح الفلسطيني ليكون وسيلة من وسائل المقاومة المستمرة ضد سياسة تغيير التاريخ وطمس الهوية والثقافة والحضارة الفلسطينية التي تنتهجها دولة الاحتلال ومن حالفها. فقام المسرحيون الفلسطينيون باستخدام ارقى الوسائل الحضارية والانسانية للتعبير عن هموم وآمال شعبهم... ولأن المسرح، فن جميل وراق، ولأن العلاقة مباشرة بين المشاهد

والممثل والكلمة... ولأن المسرح وسيلة تثقيف وتعليم وتحريض استخدمت على مر العصور، فقد كان من اقوى ادوات المقاومة الجميلة.

وانا هنا لست بصدد صياغة تاريخ المسرح الفلسطيني، الا انه من الجدير التذكير بأن المسرح الفلسطيني شهد بداياته في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، من خلال عدة محاولات لها اهميتها التاريخية، وربما نجد بداياته في العام 1919، حيث عرفت مجموعة من الأسماء التي اهتمت بالكتابة للمسرح ما بين عامي 1919 و1949، وعلى رأسهم جميل حبيب بحري، والأخوة صليبا ونصري وجميل وفريد الجوزي. وقد ساهم تأسيس الإذاعة الفلسطينية في القدس سنة 1936 بإدارة إبراهيم طوقان في تنشيط الحركة المسرحية وخصوصا نشاط عائلة الجوزي التمثيلي البارز في هذه الإذاعة.
خرجت في فترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية مسرحيات تحارب الصهيونية وتحض على عدم بيع الأراضي لليهود، وركز بعض الكتّاب على الكتابة المسرحية الموجهة ضد النفوذ الأجنبي وتدخله في شؤون العرب الداخلية (1،2).

وأصابت صدمة النكبة المسرح الفلسطيني بخيبة أمل كبيرة بعد النشاط البارز والمحطات الهامة التي حققها زمن الانتداب البريطاني، رغم صرامة الرقابة البريطانية ضد المسرحيات السياسية، فتشتت شمل فناني المسرح الفلسطيني وهاجر معظمهم إلى الأردن حيث بدؤوا نشاطاً مسرحياً فلسطينياً هناك.

وبعد انطلاقة الثورة تشكلت الكثير من الفرق المسرحية الفلسطينية في بعض الأقطار العربية وفي داخل الأراضي المحتلة رغم كل الحواجز والقيود، وفي الشتات خارج فلسطين وبمبادرة من حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح تشكلت جمعية المسرح الفلسطيني سنة 1966 في دمشق وقدمت أعمالا في عدة عواصم عربية.

وقد شهدت الحركة المسرحية تطورا ملحوظا بعد 1967، وقد ظهر أول تجمع مسرحي في الضفة الغربية في شباط 1975 تحت اسم تجمع العمل والتطوير الفني كعلامة مسرحية بارزة في الأراضي المحتلة سبقها وتلاها العديد من الفرق المسرحية الهامة التي ظهرت في مختلف مدن الضفة الغربية منها على سبيل المثال لا الحصر : فرقة عائلة المسرح التي تحولت إلى فرقة بلالين ثم بلا لين، دبابيس، صندوق العجب، الحكواتي، المسرح الوطني الفلسطيني، القصبة في القدس وقد تحولت إلى رام الله في عهد السلطة الوطنية الفلسطينية، عشتار لتعليم وتدريب المسرح، مسرح السنابل وعناد ويوم المسرح وغيرها. بالاضافة الى الفرق المسرحية والفنية التي أنشئت في المخيمات مثل مسرح الرواد في مخيم عايده.

ولأننا شعب نحب الحياة،
ولا نريد ان نولول على ما فات
ولأننا نقاوم
ولأننا لا نملك ترف اليأس، ولأننا نتحمل مسؤولياتنا كصناع للتغيير وبناء للأمل، وحافظين للذاكرة ومحفزين للأجيال الناشئة، نستمر بالعمل حتى نترك ارثا للأجيال القادمة يكون فيه غدهم اجمل من حاضرنا.
ان تجسيدنا للنكبة ولجراحنا والامنا واحلامنا وآمالنا كشعب تحت الاحتلال، لم يكن وراءه حبنا للحزن وعشقنا للبكاء على مآسينا، ولكن احياء للذاكرة الفلسطينية والعالمية وتقديما لأنفسنا للجمهور كما نحن عشناها ونعيشها، لا كما ينقلها الآخرون عنا. وكان الهدف الأكبر هو هذا الجيل الفلسطيني الناشئ، حتى يعيد قراءة تاريخه ومأساته، ولا ينسى، لأن نسيان الحق جريمة لا تغتفر، والتفريط بهذا الحق جريمة ابشع واكبر.

المصادر:

1- المسرح الفلسطيني-موقع http://nakba.sis.gov.ps/life1948/life1948-1.html

2- المسرح في فلسطين، حكاية بلا نهاية (موقع
(http://www.arabs48.com/display.x?cid=5&sid=84&id=26778